الفرقان

مجلة شهرية تصدر عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم
الأردن - السنة السادسة عشرة - رجب ١٤٣٦هـ - أيار ٢٠١٥م
العدد 159

Find us on Facebook
مجلة الفرقان القرآنية الأردنية

الفرقان تلتقي (3) حافظات للقرآن

(140) طالباً وطالبة
يلتحقون بركب الحُفّاظ في الجمعية

◇ في ظلال قوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ} — أ.د. محمد راتب النابلسي

◇ مظاهر التكريم في رحلة الإسراء والمعراج — أ.د. أحمد شكري

◇ مَن قُدوتي؟ الشباب يتساءلون..

أ.د. أحمد هليل: كل التقدير والاحترام للدور الذي تقوم به جمعية المحافظة على القرآن الكريم في خدمة القرآن ورعاية ثقافة الأمة

البنك الإسلامي الأردني ... رائد العمل المصرفي الإسلامي في الأردن

فقه السنن الإلهية واجب وفريضة

د. رشيد كهوس
أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان
جامعة القرويين - المغرب

إنّ آيات القرآن الكريم -في أكثر من موضع- تحضّ وتحثّ المسلمين على الأخذ بسُنن الله تعالى؛ فبينت لهم سُنن ولادة الأمم والدول واستمرارها نحو النضج والرقيّ، كما بينت لهم سُنن الهلاك والاندثار بعد القوة والازدهار، وذكّرتهم بنماذج من مصير الأمم الغابرة التي تنكّبت تلك السنن، فتمّ إهلاكها واستئصالها، كما بيّن الله لهم مصير الأمم التي ستأتي من بعد، وهي خاضعة كذلك لتلك السنن المطّردة.

ولكنْ قليلون مَن يتدبّرون كتاب الله تعالى ليستنبطوا تلك السنن؛ التي إنْ سارت على نورها الأمم والجماعات، اشتدّ ساعدها وترسّخ وجودها، وإن تخلّت عنها أصابها الضعف والذبول والانمحاق.

فيتحصّل مما سبق أنه واجب على المسلمين أن يأخذوا بفقه السنن، ويعتبروا بدروسها، ويتبصّروا بأنوارها.. قال الشيخ محمد عبده -رحمه الله-: «فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سُنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون، التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه»[1].

يقول حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي -رحمه الله- في علم سُنن الله القرآنية: «هو القسم المحمود -من العلوم- إلى أقصى الاستقصاء؛ فهو العلم بالله تعالى، وبصفاته وأفعاله، وسُنّته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا؛ فإنّ هذا العلم مطلوب لذاته للتوصّل به إلى سعادة الآخرة، وبذلُ المقدور فيه إلى أقصى الجهد، قصور عن حدّ الواجب، فإنه البحر الذي لا يُدرَك غَوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يُسِّر لهم»[2].

وصدق الله -تعالى- حيث يقول: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [العنكبوت:٢٠].

تعرُّف السنن التي تحكم مجالات الحياة كلها، والتزام غرزها، هو عين التوكل والإيمان، وحقيقة التكليف

هكذا أرشدنا ربنا -تعالى- «في محكم آياته إلى أنّ الأمم ما سقط من عرش عزّها، ولا بادت ومُحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنّها الله على أساس الحكمة البالغة»[3].

ثم إنّ الأمة المسلمة نسيت السنن القرآنية في معظم أمور حياتها؛ فحلّ بها ما حلّ حسب ما أهملته من سُنن الله القرآنية؛ وأعظم ما نسيته هو عدالة سُنن الله ﷻ، وجريانها من خلال أعمال البشر، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ.

ولله درّ الشاعر محمد إقبال -رحمه الله- القائل:

«كلّ شيء فيه قانون سرى كيف في هذي المعاني يمترى؟!»

وقد أحببت أن أسوق في هذا المضمار كلاماً لطيفاً للمفكر الإسلامي محمد قطب، يقول: «إنّ فكر المرجئة، الذين يقولون إنّ الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وإنّ العمل خارج عن مسمّى الإيمان، هو فكر مصادم مصادمة مباشرة للسنن الربانية. وإنّ فكر المتواكلين الذين يضربون على صدورهم ويقولون إنّ ربك ربّ قلوب، وما دام قلبك عامراً بالإيمان فلا يهمّك العمل! فكر مصادم للسنن الربانية. وإنّ فكر الذين يتصوّرون أن أعداء الإسلام -من

صليبية، وصهيونية عالمية، وإلحاد وشيوعية- ستحرقهم الصواعق ويتخطّفهم الطير و(المسلمون) واقفون يتفرّجون عليهم بغير عمل يعملونه، ولا عدّة يعدّونها، لمجرد أنّ أولئك كفّار، وأنّ المسلمين مسلمون.. فكر مصادم للسنن الربانية.. وإنّ فكر الذين يتصوّرون أنّ الله سينصرهم دون أن يغيروا ما بأنفسهم من بُعد عن طريق الله تصوّراً وسلوكاً.. فكر مصادم للسنن الربانية...»[٤].

لهذا يجب على المسلمين أن يفقهوا سُنن الله، ويتفيّأوا ظلالها، ويسيروا في طريقها على بصيرة: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف:١٠٨]، ليعيد الوصلة بناموس الله وقدره، فمنها يستمدّون الخِبرة والأسوة، ومنها يستقون الرحمة والحكمة، وبفقهها ينجون من الوقوع في وحل الهلاك.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ أمر الحياة كما يصوّره القرآن الكريم، ليس مجموعة من المصادفات ولا تدفّقاً عشوائيّاً، بل الحياة كلها مرتبطة فيها النتائج بالأسباب.

وبناءً على هذا، فإنّ تعرّف السنن التي تحكم مجالات الحياة كلها، والتزام غرزها، وعدم الخروج على مهيعها، هو عين التوكل والإيمان، وحقيقة التكليف.

وعلاوةً على ذلك؛ فإنّ مِن الواجب علينا أن نقرأ سُنن الله القرآنية قراءة ذكية، لا نتبلّد مع التقليد؛ بل نتدبّر تسلسلها التاريخي التكليفي لسُنّة الله وجريان قَدَرها على كل شيء في هذا الوجود.

هكذا رُسم لنا المنهاج، وخُطّت لنا الطريق، ووُضعت لنا القنوات، من شأنها أن تعيد الأمة المستضعفة إلى عزّها ومجدها وكرامتها، وتأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة وبَرّ الأمان.

ولهذا، فإنّ الأمة الموعودة بالظهور والخلافة في الأرض كانت ولا تزال بحاجة إلى فقه سُنن الله القرآنية وأخذ العبرة من الأمم الغابرة والأقوام السابقة والحضارات البائدة.

وبناءً على ذلك؛ فإنّ «الإنسان حين لا يهتدي بسُنن الله، ولا يهتدي بالعلم والهدى الذي جاء من عند الله، يميلُ به هواه؛ لأنه فقد الميزان، فصار سهلاً عليه أن يميل مع هواه حيثُ لا يخشى سُنّة ولا علماً. فكيف يخشاها، وهو لم يشعر بقوانينها في الحياة، وأسلوب كشفها للباطل؟! فلذا نجد أنّ ضيق نظره، والمحدودية في إدراكه، يسهّلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه، دون أن يخشى نكيراً»[٥].. فلا التصنيف المادي ولا الحكمة البشرية المفتوحة على التخمينات وحساب الأهواء المقطوعة عن الله تفيد شيئاً من الدلالة على الحق الذي به قامت السماوات والأرض، وعليه دارت سُنّة الله وتدور.. سُنّة الله سائرة بالجميع، فقهوا ذلك أم جهلوا. ومن يسمع كلام الله ويصدّقه ويستنير بحكمته -تعالى- يستطعْ وحده أن يساير سُنّة الله في خلقه على بصيرة من حتمية القَدَر، وهي غيب يؤمن به، على بصيرة أيضاً بارتباط النتائج بالأسباب، وارتباط نصرة الله للعباد بنصرة العباد لله»[٦].

ولذلك، فإنّ الذين طال عيشهم في دياجير الظلام، يؤذيهم النور الساطع من سماء الترجّي ويجرح أبصارهم، ولكن مَن تمسّك بنور السنن القرآنية، وكان حاذقاً نبيهاً في الاستفادة منها، والاعتبار بدروسها، وفي ربط حقائقها بعضها ببعض، وبيان حقائق الكتاب المضيّعة المهملة، سيكون له شرف إذا طلع الصبح وتنفّس، وعسعس اليل وتدحرج، عندئذ سيتحقّق الحق ويدمغ الباطل.

وبإجمال؛ فإنّ مَن اتخذ سُنن الله القرآنية مطيّة في بدايته، أشرقت نهايتُه، وبُوركت مسيرته، وثبتت أركان دولته ثبات الكلمة الطيبة التي مثّلها القرآن الكريم بشجرة مباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها.. ومن نأى عنها، وحاد عن مهيعها، استدرجه قَدَر الله مِن حيث لم يحتسب، وجاءه حتفه من حيث لا يشعر.

يجب علينا قراءة سُنن الله القرآنية قراءة ذكية، ونتدبّر تسلسلها التاريخي التكليفي لسُنّة الله وجريان قَدَرها على كل شيء في الوجود

وصدق ربنا -تبارك وتعالى- القائل في كتابه العزيز: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً} [فاطر:٤٣].

هوامش:

١. الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ٥/ ٩٥.

٢. إحياء علوم الدين، ١/ ٦١-٦٢.

٣. العروة الوثقى، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ص١٧١.

٤. حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص٩٣.

٥. حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص٢١٣.

٦. سُنّة الله، ص٥٤.